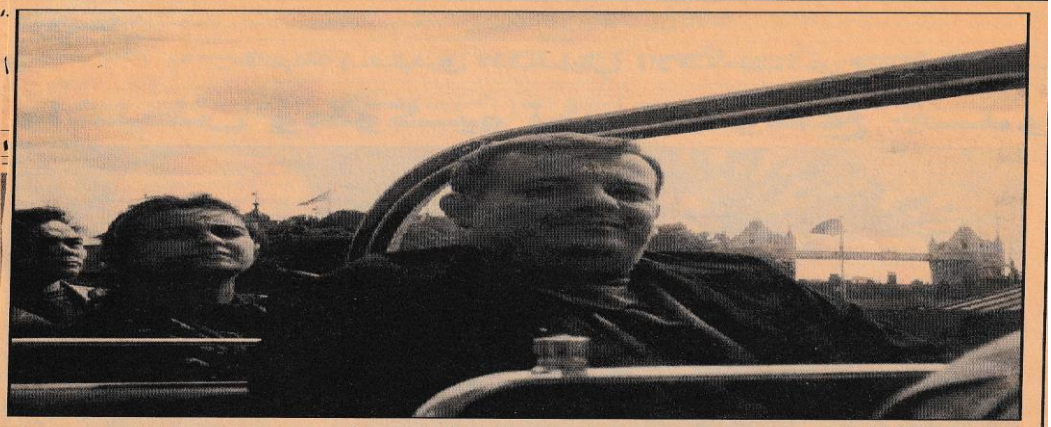


مشاهدات

ذكريات من مدينة الضباب:

ليس احتقاراً بل شفقة

على هامش زيارة رسمية قمت بها للعاصمة البريطانية بدعوة من وزارة الخارجية البريطانية والكومنولث من ١٠ ايلول ١٩٩٤ الى ١٨ منه للبحث في شؤون البيئة والسلام وحقوق الانسان مع كبار المسؤولين في لندن واكسفورد وسواهما. كان لي بعض الذكريات والانطباعات.

لست ادري حقاً بماذا استهل كلامي هنا وقد ازدحمت في مخيلتي صور لا تحصى اثر زيارتي المتاحف والمعابد والابراج والجنائن والجامعات والمكتبات والمؤسسات والنوادي الثقافية، وتجوالي في مدينة الضباب وإبغالي في بعض الاحياء اللندنية الشعبية برافقني موفد من وزارة الخارجية البريطانية حيناً وبعض الصحافيين من «الشرق الاوسط» و«الحياة» حيناً آخر. وفي البساتين والمروج والاحراج النائية حيث الخضار يكسو الطبيعة ويغمر النفوس بالانتعاش والبهجة.

حيثما اجتزت يرافقك النظام والاناقة والنظافة والانضباط. فيتهيأ لك انك في وطنك وبيتك - ولكنه مجرد تهيؤ ويا للأسف! - وانك مالك تصون حرمة ملكك او مؤتمن تحرص على الامانة لتردها الى من ائتمنك عليها كاملة غير منقوصة.

اخذت بالروعة والعظمة والاناقة المتجلية في كل مكان حتى اماكن احتقر وطني وابناء وطني. معاذ الله! - وانما بت أشفق حقاً على بلد هو الجمال المجسّم. يؤول الى هذا الدرك من التدهور والتردي والفوضى رغم تشدّق المتشدقين. يد الخالق رسمته فتنة للعالمين فعبثت به ايدي المجرمين ومسخت جماله الطبيعي مسخاً.

تحققت من ان النظام سائد في كل مكان يتقيّد به الاجنبي. والمغترب ايضاً. راضين غير مرغمين.

كل انسان في بريطانيا يتمتع بالحرية والعيش الكريم بدءاً بكانس الطرقات وبائع الصحف.

اجتزت في سيارة الصحافي المميز جوزيف ببطار برافقنا جنتلمان وصحافي مميز آخر هو نخلة الحاج. الطرقات الرئيسية في قلب المدينة فكنا جميعاً مطمئنين في تحركنا رغم اكتظاظ الشوارع ليلاً بروّاد المقاهي والمطاعم واماكن اللهو.. الدولة تأخذ منك القليل فتعطيك الكثير: طرقات مثلاً اتحداك ان تتعثر فيها بحفرة او حصاة او نتوء ما او تجد قصاصة ورق او عود ثقاب.

لا يجتاز المشاة الا على الارصفة ولا ينتقلون من رصيف الى آخر الا باذن الاشارة. اذكر اني شاهدت مرة، وكنت الى جانب بيغ بن الشهيرة، راكب دراجة نارية متوقفاً امام مستديرة يترقب الضوء الاخضر في ساعة متأخرة من الليل والساحة ساعتئذ خالية من الانس والحركة ولا مارة ولا حسيب او رقيب سوى وجدانه وحبه للنظام والانضباط.

اما العميان والطرشان الذين ينعمون ببرامج تلفزيونية خاصة بهم، فهناك جرس يرنّ من وقت الى آخر او اشارة محددة فيجتازون في طمأنينة وسلام. ويكفون وطأة الشفقة المزيفة احياناً التي يرمقهم بها بعض المارة.

يتقاعد من بلغ سناً معينة فيعيش بقية حياته عزيزاً مكرّماً ناعماً بامتيازات لا تحصى... اما نحن، في هذا البلد الكريم، فاذا شاخ احدنا او اضطر الى اعتزال العمل، فقد يقضي ايامه الباقية ذليلاً بائساً، ولا يجد الراحة الا بعد انطفاء سراج حياته.

يؤدي السائق خدمته - وقد يكون شخصية مرموقة يملأ فراغه بعمل ينفعه - ولا ثرثرة مع الركاب ولا عنتريات ولا تبجح..

الدولة تأخذ وتعطي: تتقاضى منك رسوماً فتعطيك طرقات معبّدة نظيفة تسير عليها الف كيلومتر فلا تشعر بانزعاج من شيء، تتقاضى ضريبة فتعطيك تعويضات وتؤمنك حاضراً ومستقبلاً فتحيا حياة طمأنينة وسعادة فيما نحن نحيا حياة قلق مستمر - واحياناً حياة ذل ويأس - حاضراً ولا سيما مستقبلاً.

في الحدائق يحوم حواليك الحمام الوديع ويجثم على كتفك، ويأكل من كفك، ويكاد يناجيك فلا تحدث الطفل نفسه ان يمسه بأذى او يمس زهرة من الزهور - وهي من مئة لون ولون - التي تبهج الانظار وتعطر الارجاء.

حدّثني احد المسافرين الثقات ان احد السياح جلس على مقعد في حديقة عامة دهن حديثاً وسها المسؤول عن وضع لافتة تشير الى ذلك، فانسخت بذلته، فرفع الامر الى المراجع المختصة فصدر الحكم باعطاء السائح بذلة جديدة او مبلغاً من المال يوازي ثمن بذلته المتسخة... ان النظافة التي نفتقر اليها ايما افتقار ولا سيما في استقبالنا المتكرر لنقابات العالم، لتنم عن فضائل وصفات لا تحصى.

الى جانب الحسنات التي نفتقر اليها في بلادنا، هناك تصرفات لدى الاجنبي رصدتها منذ عشرات السنوات ولمستها في زيارتي الاخيرة لبريطانيا العظمى. واقل ما يقال فيها انها تحديات صارخة للمجتمع عموماً. وللطبقة الكادحة الفقيرة خصوصاً.

يقتنون القطط والكلاب ويرفهونها وينشئون لها صالات التزيين، والمستشفيات. ويعدون لها المآكل الشهية. فتجد مثلاً ربع المساحة في السوبر ماركت وقفاً على المعلبات والألبسة والعقاقير الخاصة بها.

انا لست ضد الاعتناء بهذه الحيوانات الاليفة الوفية مما يشير الى اهتمام اوفر بالانسان.

واوفى صاحب الفيت كلب يبصبص لي ولو حرم الطعام ولكن، ان يتجاوز الترف والبذخ كل حدود فنوليها جلّ اهتمامنا ونهمل الحرب على اطفال هنا وهناك يفتك بهم الجوع والعري والمرض، فذلك ما لا يقبل به عرف ولا ناموس وذلك جرم لا يغتفر في حق الانسانية.

لا ينبغي التعميم بالطبع، ولكنني شاهدت في بريطانيا العظمى بالذات وبام العين سيدة يصحبها كلبان في حراسة خادم تحسبه زوجها لحسن منظره، شاهدتها تلقم كليبها العزيزين شرحات من افخر اللحوم في شارع آهل بالمارة من جميع طبقات الشعب. وبعد ان اطعمتهما زهاء رطل من اللحم، اومأت الى حارسها بان يستقل سيارتها الفخمة وراحت تجري الى مزين او - من يدري؟ - الى احتفال بعيد ميلاد لهما تهدر فيه الاموال بلا حساب.

وهبْ ان انساناً سقط من شرفة او دهسته سيارة. فلا ترى احداً يقترب منه محاولاً نجدته او اسعافه... ويبقى المسكين هكذا عرضة للهلاك ريثما يأتي المسؤولون ويباشرون التحقيق.

وهبْ انك سكنت في بناية خمسين عاماً وكان بينك وبين جارك مسافة متر واحد، فلا تظنّن انه يخطر بباله يوماً ان يلقي عليك التحية ولو كنت تفوقه علماً وقدراً وسنّاً.

وفي الحالتين الاخيرتين، في مقدورنا التعميم. ومن تلك التصرفات اللاانسانية في رأينا الشيء الكثير في بلاد الناس وحتى في الامبراطورية التي ما زالت الشمس لا تغيب عنها رغم ضبابية بيئتها الخارجية وبعض التصرفات التي المحنا الى بعضها، ومعطيات اقتصادية لا نسترسل فيها هنا.

وزبدة القول ان حياة الاجانب نظامية انعزالية مؤمّنة تفتقر احياناً الى الروح. وحياتنا اجتماعية ضاغطة احياناً كثيرة ولكنها غير مؤمّنة وينقصها النظام... والروح!

□ الدكتور جهاد نعمان
مؤسس
«الجمعية اللبنانية الاوروبية»